التصوف الإسلاميّ عند الغرب (أنّا ماري شميل أنموذجا).

: Islamic mysticism in the West (Ana Marie Shamil is a model).

الباحث : طاهير محمد أمين.

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم/ الجزائر .

mohamedaminetah@gmail.com

المشرف : أ/د : حمودي محمد /جامعة عبد الحميد بن باديس

تاريخ الاستلام:2019/12/18 تاريخ القبول: 2019/12/28 تاريخ النشر: 2019/12/31

ملخص:

التصوّف الإسلاميّ من بين العلوم الإسلاميّة التي أثّرت وبشكل كبير في المفكّرين والمستشرقين الأوروبّيين لم فيه من قيم روحيّة مثلى . والصوفيّة من أهمّ الفرق الإسلاميّة التي أثارت اهتمام أغلب الدّراسات الاستشراقيّة نظرًا للدّور الفكريّ الذي يؤديه في مسيرة الإسلام، فتأثّروا بشخصيات صوفيّة معروفة في التصوّف الإسلاميّ وتناولهم بالدّرس والترجمة. نموذج "أنّا ماري شميل" مشرّف و مشرق لهذا الاستشراق، قراءتها مختلفة وتأثّرها غير عادي وإنصافها للإسلام والمسلمين منقطع النّظير، ولهذا أثارت اهتمامنا واعتبرناها مثالا مشرّفا يعبّر بصدق عن قيم الإسلام وأخلاق المسلمين.

كلمات مفتاحية:

الاستشراق – الألمان – الموضوعية – الإنصاف – شميل – العلمية– التراث.

Abstract:

Islamic mysticism is amony the Islamic sciences that greatly influenced European intellectuals and orientalists due to its ideal spiritual valus.and Sufism is one of the main Islamic groups that interested most orientaliest studies given the interllectual role that it plays in the Islamic march.they were influenced by well-knaw figures of Sufism in Islamic my systicims and their dealing with translation and lesson.''ana marie shemil'' is an honoured model for this orientalism.

Keywords:

Orientalism; Germans; Objectivity; Equity; Shemel; Scientific; Heritage.

المؤلف المرسل:طاهير محمد أمين، **الإيميل**: mohamedaminetah@gmail.com

ممّا لا شكّ فيه أنّ بدايات التصوّف الإسلامي نشأ كنزعة فردية تدعو على الزّهد في الدّنيا وعن ملذّاتها والإعراض عن زخرفها هروبا إلى الله، ولعلّ هذه النزعة جاءت كردّ فعل للتجاوزات الّتي شهدها المجتمع الإسلاميّ مع بدايات القرن الثّاني الهجري وانغماسه في التّرف الحضاري. ومع بزوغ القرن الثالث الهجري صارت هذه النزعة علما مدوّنا أطلق عليه " علم التّصوف" بعدما أن كانت الطّريقة عبادة ، ومن الّذين نبغوا في هذا العلم وألّفوا فيه المصنّفات نذكر : السهروردي في كتابه : عوارف المعارف، والقشري في رسالته، وأبو القاسم الجُنيد... وغيرهم كثير.

فما هي حقيقة التصوف الاسلامي عند الغرب؟ و كيف أثر في الاستشراق الغربي و الألماني بالخصوص؟ و كيف تأثرت المستشرقة الألمانية آنا ماري شميل بالمتصوفة المسلمين و الشعر الصوفي العربي؟

مع امتداد رقعة الدّولة الإسلاميّة إلى حدود بعيدة على مساحة جغرافيّة واسعة أرست الحضارة العربيّة في كل رقعة حدائق فكريّة ، وفلسفيّة وأدبيّة، والواقع أن تأثير الحضارة الإسلاميّة قد امتد بمقدار واسع جدًا وبكيفية ملموسة إلى جميع ميادين الحياة ، ممّا دفع المستشرقين الأوروبيين إلى الاهتمام بالفكر العربي الإسلامي ، وبهذا الحضارة التي خرجت من

صحراء قاحلة وأهلها بدو لا يمتهنون إلاّ الرعي والتّجارة عبر قوافل الترحال ، ممّا أثار شغفهم وأنمى فضولهم في معرفة سرّ ذلك.

أخذ التّصوف مجاله في ذلك الاهتمام والتأثّر، فقد كان حضور التّصوف في مختلف مناطق العالم ظاهرة وسبب تناولها بالدّرس والبحث.

عنى الأوروبّيون بدراسة حضارة الشرق وثقافته وجمع المعلومات الواسعة عنه، وبدلوا جهودا مضنية في ذلك وقد شكّل الدّين الإسلاميّ منذ ظهوره مشكلة لأروبا المسيحيّة التي نظرت الى المؤمنين وكأنّهم أعداء يقفون على حدودها ويهدّدون ثقافتها.[1]

تناول المستشرقون من علماء أوروبا الإسلام والمسلمين بالدّراسة من نواحي مختلفة و في مجالات عدّة ، فكان منهم ممّن سيطر عليه الهوى والتّعصب فأضلّه على جهل أو علم ، ومنهم فضّل وآثر أن يكون منصفا موضوعيّا إلى حدّ بعيد يقرّ بالحقّ متى هدي إليه في نتائجه البحثيّة . وهاته الدّراسات الّتي تميّزت بالجدّ والعمق للإسلام لم تبدأ إلا منذ القرن التّاسع عشر، حينما ذاعت ثقافة الشّرق والبلاد الإسلاميّة وأخذ الغرب يبسط نفوذه وسلطانه باسم الاستعمار على الشرق والبلاد الإسلاميّة ، ممّا قرّبه من هذه الشعوب وفرض عليه التأثّر بها سواء بدافع الاحتكاك المباشر أو بالتأثّر الثّقافي والدّيني والاجتماعي وغيره.

يحتلّ التّصوف أهميته خاصّة لدى المستشرقين نظرا للدّور الفكريّ الذي يؤديه في مسيرة الإسلام فقد أخذت أقلامهم بالكتابة عنه وعن أصوله وأهمّ شخصياته ودرسوها دراسة مستفيضة، وذهبت أغراضهم بعيدة عن واقع حال التّصوف وجاءت نتائج بحوثهم مختلفة حول أصله ونشأته، وأخذوا من حادثة الحلّاج حدثا مهمّا يثبت مظلوميّة الحلّاج في الإسلام[2] .

أخذ التّصوف اهتمام الباحثين وبداية الطريق فيه واضحة كما هو معروف لديهم، ولا شكّ أنّ التّصوف كعلم قائم حاول أن يحلّ محلّ الفلسفة وعلم الكلام وغيرها من العلوم الأخرى، كما يمتاز التّصوف بنوع خاص من المعرفة لا نجدها في الأنواع الأخرى من الفكر الإنسانيّ والإسلامي ، وتوصف المعرفة الصّوفية على أنّها معرفة ذوقيّة كشفيّة إلهاميّة ، باطنية تأتي القلب مباشرة دون تشغيل العقل ودون استخدام الحواس، تلمس الشّعور الانساني في غير طلب ولا تعمّد.

وإذا عدنا شيئا فشيئا إلى الوراء فإن أوّل نصّ وصل على الغرب عن التّصوف الإسلامي، وأوّل دراسة في هذا المجال هو نصّ "رابعة العدويّة" ناسكة القرن الثامن، التي جاء بقصّتها إلى أوروبا أواخر القرن الثالث عشر (جوينفل)(GONEVEIL) مستشار الملك لويس التاسع، وظهرت شخصيّة رابعة في دراسة صوفيّة أخرى عن الحبّ الصّادق بالفرنسية عام 1040[3] ، كما نشر أوّل عمل صوفيّ مكتوب بالعربيّة للمرّة الأولى في عام 1638م عبارة عن قصيدة شعريّة للشّاعر المصري "إبن الفارض" نشرها العالم "فايير تسيو""Farriciuce " وشغلت التّرجمة اهتمام أغلب المستشرقين فكانت ترجمة الغرب لرباعيات "الخيّام" أهميّة قصوى ، ولعلّ أهمّ ترجمة لها تلك التي قام بها (إدوارد فتزجرالد) (E.Fetzegrald)، وكذلك "منطق الطّير للعطّار" ، فكان لهذه الترجمات وقع مؤثّر في نفوس الأوروبيّين.

تتّفق أغلب المصادر التاريخيّة والدّراسات عن الاستشراق أن القرن التّاسع عشر هو ذروة النّشاط الاستشراقيّ، حيث بدأت هذه الدّراسات حقبة جديدة نحو الشّرق وعلومه، فالرّحلات والبعثات العلميّة وترجمة الكتب خاصة عن تاريخ التّصوف الإسلامي مما وضّح صورة هذا الأخير عند الأوروبيين وأصبح لديهم تصوّرا أفضل له وعن بداياته وطبيعته .

وكان أوّل كتاب عن الصّوفية قد كتبه العالم الألماني "طولوك" (F.A.Tholuk) نُشر عام 1821م بعنوان (التّصوف أو فلسفة وحدة الوجود الفارسي)، وتلاه كتاب آخر له بعنوان (باقة زهور من تصوف الشّرق)، وكذلك نجد"بالمر" (E.H.Plmar)، وكتابه "التصوف في الشرق سنة 1867م، فقد أكّد فيه أن التّصوف هو نتاج تطور الدّين الأوّل لدى الجنس الآري[4].

وما كتبه الفرنسي" أرنوا" (Ro.Arnand)، إذ نشر (الكلام على الصوفيّة) للأبياري متنا و ترجمة (الجزائر 1889) [5] ،وجهود المستشرق الألماني "ليون جونيه"(L.Gauthier) الذي نشر قصّته "حي بن يقظان لابن طفيل" (1900) [6]، ولعلّ أهمّ جهود في التّصوف هو ما عرف عن المستشرق "جينون" (Guenon.Rene)، إذ عُني بالدّراسات الصّوفية الإسلاميّة. ثم نعود إلى المستشرق "ماسينيون"(L.Massignon)،والذي يعدّ رائد الدّراسات الصّوفية ليس في فرنسا فقط بل في أوروبا، إذ تخصّص في الدّراسات الصّوفية وأعدّ أطروحته للدكتوراه (ألام الحلاّج) وخصّص جميع أبحاثه في أصل نشوء التّصوف وهو يعدّ مرجع الغرب في التّصوف. [7]

اتسمت أفكار المستشرقين بالكتابة عن التّصوف بالنّظرة الغربيّة المستمدة من الدّوافع الدينيّة من وراء دراسته، وقد كانت دراستهم له دينيّة لاهوتية بدأت بدوافع كنسيّة قام بها النساك الغربي منذ العصور الوسطى حتى يومنا هذا، محاولين في ذلك تثبيت أثر المسيحيّة في الدّين الإسلاميّ، فكانت مؤلفاتهم تبحث في تأثير المسيحيّة في الأفكار الإسلاميّة وقد تخصّص في هذا الجانب عدد قليل منهم ومن أبرزهم:

1- رنولد نيكلسون(Nicholson): يعدّ حجّة في التّصوف فقد اختصّ به دون غيره من الدراسات الإسلاميّة، حقّق ديوان (متنوي ومعنوي لجلال الدّين الرومي) وكذلك كتاب "معارف الأديان ودائرة المعارف الإسلامية" وأهم كتبه الصوفيّة في الإسلام ، وصف أحوال الصوفيّة والتّصوف الإسلامي، وهو من أكدّ على أنّ أصل التّصوف ينحدر من جذور مسيحيّة وتبعه الكثير من الباحثين في هذا المجال.

2- لويس ماسينيون (Massignon): من أصول فرنسية ، قرأ أشعار "لمزيد الدين العطار" الشاعر الفارسي الصّوفي؛ وتدور حول مصرع الحلاّج وفيها تمجيدا لشهيد التّصوف ومن أشهر ما كتبه " آلام الحلاّج"[8].

3- هنري كوربان (Henery.Corbin) : يختلف منظوره الفلسفة والتّصوف عند هنري كوربان عن بقية المستشرقين، فهو الذي درس التّصوف على الطريقة الإيرانية ينزع نزوعا يستند إلى الوجدان والتجربة الصّوفية، وإذا كان ماسنيون قد اشتهر بالحلاّج فإن كوربان اشتهر بالسّهروردي.

احتلّ "السّهروردي" أهمية كبيرة في دراسته فقد ألقى الكثير من المحاضرات عنه وألّف الكتب عن حياته وآثاره. [9]

4- تورأندريه (Tor.Andrea) : من كبار المستشرقين السويدين ومن أعلام المتخصّصين في تاريخ الأديان والسيكولوجيا، ويعد كتابه (التّصوف الإسلاميّ) من المراجع المهمّة في دراسة التّصوف فهو لا يستعرض التّصوف الإسلامي وأهدافه فحسب، بل يترك أقطابه يعبّرون عما يجيش في خواطرهم[10]، فالكتاب واضح في سرد الأحداث وتفصيل الرّوايات عن منشأ أصل التّصوف، فهو يملك دقّة الوصف في كشف الحقائق التاريخيّة في تفسير معنى الزّهد والكشف عن أسرار الحياة الباطنيّة عند الصّوفيين . فهو يبحث في البداية العلاقة بين التّصوف والمسيحية، ثم ينتقل إلى معنى التصوف[11] ، ثم الوحدة والمجتمع ، ثم ينهي كتابه بالحديث عن التوكّل على الله والحبّ الإلهي.

بعد عرض جملة من المستشرقين والمفكّرين الأوروبيين الذي كانوا من الأبرز في دراسة التّصوف الإسلاميّ والكتابة عن شخصيات صوفيّة إسلاميّة بارزة، نصل إلى نموذج هذه الدّراسة البسيطة الذي اخترناه، لم قدمه من أعمال جليلة في باب التّصوف الإسلاميّ وكانت هذه المستشرقة مختلفة في دراستها وتأثّرها بالإسلام أوّلا و التّصوف الإسلاميّ والشّعر الصوفي ثانيا، هي المستشرقة الألمانية "أنّا ماري شميل". هي من القلائل الّذين كرّسوا جهودهم في دراسة التّصوف الإسلاميّ وتاريخه، حيث قال عنها موقع روايتي الثقافي:

"إنّها تعد نموذجًا للّذين أحبّوا بصدق الحضارة الإسلاميّة، ووقفوا على الإسهامات العظيمة التي قدمتها للإنسانية، وقدّموا من خلال دراساتهم وأبحاثهم خدمات رائعة للإسلام، بل وقدّم بعضهم تضحيات لأجل الثّبات على مواقفهم". (12)

فقد نجحت في إدراك الكثير من الأهداف السّامية التي عجز عن تحقيقها غالبية نُظرائها، ومردّ ذلك إلى الخلفيّة التي تعالمت بها المستشرقة الألمانية مع الحضارة الإسلامية التي درستها، فقد ارتكزت هذه الخلفيّة على الكثير من الحبّ والرغبة في اكتشاف الجوانب المضيئة فيها.

كانت "شميل" تعرف من اللّغات مالا يعرفه غيرها من دارسي الإسلاميّات، وكانت سببا في تعريف الشّرق بشخصيات صوفيّة من الهند والباكستان و تركيا لم يُسمع عنها من غيرها .... كانت تستطيع أن تترجم أعمال الرّومي كلها كما فعل نيلكسون لكنها لم تفعل ... لم تملك من قدرة على نقل هذا العالم الثّري إلى أي لغة مهما كانت، فكل اللّغات تعجز عن نقل عالم مولانا الرومي، ورأت "شميل" أن رسالة الإسلام أوسع من أن تستقل بها منطقة أو يحدّها الزمان، فتجاوزت الأزمان وخرقت حدودًا وسياجًا صنعه(أهل الإسلام) من أجل خدمة الإسلام. (13)

تعتبر من أهمّ المستشرقين في العصر الحالي، وهي محلّ ثقة وإجماع في الشرق والغرب، جابت البلاد الإسلاميّة والتقت بالسّاسة والزّعماء، وكُرمت هنا وهناك، وكان التّكريم الشّعبي لها أهمّ وأنفع، فهي لم تكن لتكتب للنّخبة فقط، بل كانت تكتب ليقرأها الكلّ، دون تمييز، ولعلّ سهولة أسلوبها وبساطتة جعلها معروفة بشكل كبير عند جمهور البسطاء في البلاد الإسلاميّة.

هذا بالإضافة إلى عشقها للشّعر العربي ونظمها أبياتا توحي بشاعريتها، ومن ذلك نقلها الى العربية بيتًا من الشّعر للشاعر والفيلسوف الألماني "يوهان جوته" الذي يقول في صياغتها:

إن يكُ الإسلام معناه القُنوت فعلى الإسلام نحيا ونمُوت. (14)

كان إنتاج "شميل" المعرفي ثريًّا للغاية، فقد ألّفت ما يربو على المائة كتاب وبحث احتلّ التّصوف فيه النّصيب الأكبر، ونظرا لأن هذه الشخصية لم تنل حقها في الدّرس العربي ولم تُقدم حتى اليوم جهودها في درس الفلسفة الإسلامية والتّصوف ارتأينا أن نقدّمها ولو بشقّ بسيط في ذلك .

يعد كتابها " **الأبعاد الصوفيّة في الإسلام وتاريخ التّصوف**" مرجعا مهما لمن يدرس التّصوف في الشّرق والغرب، إذ وضعت في كتابها الخطوط الأساسيّة للمنظور التّاريخي لحركة التّصوف في المشرق، وناقشت جميع النّظريات الغربيّة في تفسيره ويكاد يكون منهجًا موضوعيًا في وصف الإطار العام لتاريخ التّصوف باعتمادها على مؤلفات كبار الصوفيّة . ويحتوي الكتاب على كبار شعراء الصوفيّة، وكذلك أهمّ رواد التّصوف وأهمّ الطّرق الصّوفية في المشرق والمغرب. (15)

وقد أظهرت الدّراسة تفوقًا في لمّ شتات فكر متتابع متنام على امتداد القرون في بيئات متباينة في غاية التباين، وتأتي أهمية الكتاب في عمق ثقافة المؤلّفة وسعة إطلاعها على تاريخ المسلمين وفكرتهم ومعتقداتهم.

عُدت المستشرقة من دُعاة الحوار بين الأديان والحضارات، إذ كانت ترى بأن الحوار هو الطّريق الوحيد إلى خدمة الحريّة والتّفاهم وإزالة البغضاء والحقد والعنف والتعصّب، وهي تنظر إلى الإسلام على أنّه دين سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمن دون معرفة متبادلة واحترام وثقة متبادلة لا يتحقّق أي سلام مرجو. (16)

وبذلك كان لها الفضلُ في تعريف الشعب الألمانيّ خاصّة والأوروبيين عامّة بمنهج الإسلام والحضارة الإسلامية، وهي تدرك أنّ الإسلام في تحولات وأيديولوجيات لم يعرفها من قبل. (17)

كما أصدرت كتاب عن حياة "رسول الله محمّد ابن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم"، وعندما هاجمتها بعض وسائل الإعلام الألمانيّة عن موقفها الإيجابي من "رسول الله صلّى الله عليه وسلّم" أجابت **"نعم إنّي أُحبّه"**، وفي إجابة عن سؤال وُجّه لها عن رأيها في الإسلام قالت "شميل" :" إنّني أحبُ الإسلام، ولولا أنّني أحبُّه ما كتبتُ عنهُ أكثر من ثمانين كتابًا، وقد وجدت فيه دين تسامح وروحانية، وتوقّفت كثيرا عند كلمات القرآن:" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " البقرة 256 ، وقد قُلتُ لمن وجهُوا إليَّ النَّقد ، "إنّي أحبُّ الرَّسُولَ مُحَمَّد صلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم"(18)

ويذكُر عنها الأستاذ "أحمد زكي يماني" أنّها عندما كانت تذكر "الرَّسول صلّى الله عليه وسلَّم" تقول :" قال حبيبي وقرّة عيني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم تذكر الحديث النّبوي الشّريف سندًا واتصالاً ومتنًا " ولذا أوصت الأستاذ أحمد زكي يماني أن يقرأ سورة الفاتحة على قبرها بالعربيّة يوم دفنها، ففعل. (19)

في إطار اهتمام الباحثين بما كتبت "أنّا ماري شميل" نعثر في الكتابات العربية على تصنيفها في دائرة المستشرقين المنصفين للإسلام ، وحينما تحاور "شميل" فإنّ حوارها يتحول من إجابات على بعض الأسئلة إلى محاكمة الغرب، كما قضت شطرًا من حياتها في تدريس الطُّلاب في تركيا، وألقت عشرات المحاضرات عن التّصوف والإسلاميّات ، فقد ترجم كتاب "سيرتها الذاتية" عبد السلام حيدر وكتاب " مرأة الروح " "لعيسى علي العاكوب"، فهو وعبد السلام حيدر من أهمّ من قدّموا هذه الشخصية العظيمة بالشّكل اللّائق بها علميًّا. (20)

وهي تردُّ بصيغة أخرى وبطريقة مُثلى، وتعبّر عن رأيها في الإسلام دفاعًا وحبًا. "إذا ما كان المرء يرميني المرّة بعد الأخرى بأنّني أرى الإسلام بصورة رومانتيكية، فإنّني يمكن أن أجيب بمقولة القديس أغسطين:" المرء يستطيع أن يفهم شيئا ما فقط على قدر ما يحبه". ولأنّني ومنذ طفولتي قد أحببت عالم الشّرق، ولأنّني أتواصل مع المسلمين بلغاتهم، ولأنّني عشتُ مع أسرة مسلمة متديّنة، فإنّني أعتقد أيضًا أنّني يمكنني أن أفهمهم بعض الشّيء" بهذه الكلمات أجابت "أنّا ماي شميل" على بعض الأسئلة التي كانت تلاحقها من قبل الجمهور الغربي إزاء ما كانت تكتبه بشكل إيجابي عن الإسلام ، مركّزة على جانبه الجماليّ الذي اكتشفته عبر رحلة طويلة في العالم الإسلامي، درّست في جامعاته، ونشرت تراثه، وحاضرت في مجالسه العلميّة، وخالطت الرّجال والنّساء والأطفال. (21)

كلّها عبارات تحمل من قيم التّسامح والحبّ والمعاشرة الطيّبة التي كانت تجمعها بالمسلمين من خلالها احتكاكها المباشر بهم، فاكتشفت تلك الأخلاق السّمحة الموجودة فيهم، والتي ينصّ عليها دين الإسلام في كلمة الدّين المعاملة، فقد عاملوها بلطف ورحمة ومحبّة فكانت ردةُ فعلها حبًّا وإقرارًا بحسن المعاملة وتجسيد القيم الرّوحية النّبيلة، سواءًا كان ذلك في المجتمعات أو في الإعلام.

الصّوفية التي عاشرتها أيضًا أو قرأت عنها، فالفكر الصوفيّ وما يحمله من قيم نبيلة جذب إليه الدّارسين الأوروبيّين، ومن بينهم وأبرزهم "أنّا ماري شميل" التي كتبت عن الإسلام والصّوفية الإسلامية، وعن "الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم"، فهي نموذج مشرق للاستشراق، كما قال "ثابت عيد" وسماها عميدة الاستشراق الألماني وكتبت كتاب بعنوان "**الشرق والغرب**" ترجمه إلى العربية "سلام حيدر" وكتاب " **الشمس المنتصرة**" وكتاب" **الجميل والمقدس**"، وكتاب " **رمزية الحروف في المصادر الصّوفية**"، هذه من أبرز الكتب والأعمال القيّمة التي قدّمتها في دراستها للإسلام والتّصوف الإسلاميّ.

إنّ اهتمام انّا ماري شميل بنقل الأشعار الشرقيّة الى الألمانيّة والانجليزيّة، وغزارة ما نشرته من ترجمات رائعة يضعها في مصاف الأخلاف الرّوحيين للمستشرق الألماني الكبير "فريدريخ رويكريت" الذي كان أيضا شاعرا ومترجما، بل الواقع أن الترجمات تضعها على قدم المساواة معه[22].

تأثرت بشعراء متصوّفة كثر كتبوا في الشعر الصّوفي الاسلامي أمثال الشيخ الأكبر ابن عربي، الذي وضع نظام علمي للتّصوف أكثر من كونه "صاحب غيبة صوفيّة أمر أفاد الأجيال اللّاحقة حيث وجدوا نظاما شاملا استطاعوا أن يوظّفوه"[23].

ومن بين الأشعار لابن عربي في معرفة الحبّ معرفة حقيقيّة يقول:

اذا بـــدالـــي حبيبـــي فبـــأي عيـــن أراه

بعينـــه لا بـــعينـــي فغيـره لا أجـد يراه

فانّ ابن عربي يرى وحي الله في الوجود الخالص "العماء" في عالم المخلوقات[24].

وغالبا ما يثنى على ابن عربي أنّه محامي التّسامح الديني، وكل من أراد أن يعرب عن مثاليّة التّسامح الصّوفي وعدم التفرقة كان ينشد أبياته القائلة من ديوان الأشواق:

لقد صار قلبي قابلا لكلّ صورة فمرعى لغزلان ودير ولرهبان

وبيت لأوثـان وكعبـة طائـف وألواح ثوراة ومصحـف قـرآن

أدين بدين الحـبّ أنى توجهت ركابيه فالدين ديني وإيمانـي[25]

هذه السمّة الّتي أحبتها شميل في المجتمعات الاسلاميّة وقد تحدثنا عنها سابقا على روح التّسامح والاخاء التي استنبطتها تأثرت بها من خلال معاشرة المسلمين والاحتكاك بهم والعيش معهم. وكما تأثرت بالمتصوفة ابن عربي كان لها جانب آخر من الاهتمام بالشّاعر الصّوفي ابن الفارض، ومن بين الأشعار التي أثارت شغفها، قصيدة من ديوانه قصيدة الخمريّة الّتي تشف خمر الحبّ الالهي الذي يفعل المعجزات، ومن ذلك قوله:

شربنا على كأس الحبيب مدامـة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

لها البذر كأس وهي شمس يديرها هلال وكم يبدو اذا مـزجت نجـم

ولولا شذها ما اهتديت لحانـا ولولا سناها ما تصورهـا الـوهـم[26] .

فتقول المستشرقة في قراءتها للأبيات شرحا وتأثرا: "تلك الأبيات التي تعب عن شعور المحبّ أثناء ذكره للحبيب تعتبر من أحب أسطر الشعر العربي الكلاسيكي، وهي قمّة الرومانسيّة، رغم أنّها تعجّ بالتطريز البلاغي"[27]، فكلمة التطريز تدل دلالة قاطعة على شعريّة القصيدة وفنّيتها وأقامت هذا التشبيه لإظهار جمال السّبك وحسن النّظم.

وتقول في هذا المجال :"وعين السّاكر بالحبّ ترى آثار الجمال الأزلي في كل مكان وتستمع الى التعبير الصامت لدى كل المخلوقات"[28] .

وتستدلّ في ذلك بأبيات لمولانا جلال الدّين الرّومي، المتأثّر بالقصص القرآني، وزليخة التي استخدمت حبّها وشوقها لجمال سيدنا يوسف عليه السّلام حيث يقول:

متى لو عددت مائة ألف اسم

فانّ عقلها ومرارها كان دائما هو يوسف[29]

وتتأثر به حيث يقول:

ما أخشى اذن ما دمت بالموت لا تنقض

فاذا ما عدت فمت انسانا

فلسوف أهدى جناح الملك

ثم يكون لزاما أن أموت ملكا

فأصير–لا أفهم كيف– الى روح الله

أواه، لا توجدني! فالعدم يناديني

بنغمات الأرغن قائلا: "إليه سوف نعود"[30] .

والعدم هو ذات الله التي لا يمكن وصفها وقد تأثرت بالبيتين الأخيرين أيّما تأثر اعتبار الألماني ريكريت قد ترجم جزءا المثنوي للرّومي قبل 150 عاما لكنّه لوم يترجم هاذين البيتين. وقد كتبت كتابا كاملا اسمته "الشمس المنتصرة" قامت فيه بدراسة آثار الشّاعر الاسلامي جلال الدّين الرومي، ترجمه الى العربيّة عيسى العاكوب، ركزت فيه على الصور المجازيّة عند الرومي من خلال (الشّمس، الماء، رمزيّة الحدائق، الصور المجازيّة المستوحاة من الحيوانات، الأطفال كذلك، الصور المستمدّة من الحياة اليوميّة، ومن الطعام والصور المجازيّة المرتبطة بالأمراض والنّسيج والخياطة، والصور المجازيّة القرآنيّة والتاريخ والجغرافيا والموسيقى والرقص)، كلّها أشكال اهتمت بها "شميل" في الشعر الصوفيّ متأثرة بنماذج شتى في الشعر الصوفي الاسلامي.

الخاتمة:

التّصوف أهمّ الفرق الإسلامية التي أثارت اهتمام أغلب الدراسات الاستشراقية، فأخذت أقلامهم بالكتابة عنه وعن مسيرة تاريخه، وأهمّ رموزه رغم من شكّك في البدايات الأولى لظهوره، وشغلت الأشعار الصّوفية خاصّة الفارسيّة منها مكانة هامة في الدّراسة عند أغلب المستشرقين وبالأخصّ المستشرقة الألمانية " أنّا ماري شميل" التي وُصفت بإنصافها للإسلام وتأثّرها الكبير بالتّصوف الإسلاميّ والشعر الصوفي منه، ودرسته من منظور علميّ وموضوعيّ بحث، وأُعجبت بالنّزعة الروحانيّة في الإسلام والشعراء المتصوفة، تلك التي يفتقدها كثير من الغربيين في البيئات الغربيّة، رغم انتشار دور العبادة فيها بسبب سيطرة النزعة الماديّة على مسار الحياة العامّة في عموم الغربيّين، فوجدوا في الصّوفية ملاذا لم يجدوه في حياتهم العامّة وملأت فراغًا كانوا يشعرون به.

كشفت هذه المستشرقة على القيم الروحيّة الموجودة في الفكر الصّوفي الإسلاميّ وعرفت المجتمعات الأوروبية بالشعر الصوفي الاسلامي والشعراء الصوفيين ،هذ الشعر المفعم بالقيم النّبيلة لأنّها – كما سبق الذكر– عاشرت المجتمعات

الإسلاميّة واحتكّت بهم واكتشفت فيهم حسن المشعر في التّعايش مع الأجنبي رغم اختلاف دينه ومعتقده، فهو يحظى بالطمأنينة ويختص بالمحبّة والرّحمة، هذه القيم التي اكتشفتها المستشرقة لأنّها قرأت وعاشرت المسلمين في آن واحد.

قائمة الإحالات:

المؤلفات:

1-زهير يوسف عليوي الحيدري ، جهود المستشرقين في دراسة تاريخ التصوف ، مجلة أوروك للأبحاث الإنسانية ، جامعة القادسية، العدد 3، 2010 ، ص 50 .

2-المرجع نفسه ، ص 50 .

3-أنّا ماري شميل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف ، ترجمة محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب ، دار الجمل ، القاهرة ، 2007 .، ص 12 .

4-ينظر، المرجع نفسه ، ص 12 .

5-المرجع نفسه ، ص 14

6-نجيب العقيقي المستشرقين، دار المعارف، القاهرة ، 1964 ، ج1، ص 318

7-المرجع نفسه ، ص 239 .

8-ماسنيون لويس ، آلام الحلاج ، ترجمة الحسين مصطفى الحلاج ، شركة قدمس، بيروت، لبنان ، 2004 ، ص 11.

9-بدوي عبد الرحمن ، شخصيات قلقة في الإسلام ، دار النهضة العربية القاهرة ، ط2، 1964 ، ص 95.

10-زهير يوسف عليوي الحيدري ، جهود المستشرقين في دراسة تاريخ التصوف ، ص 57 .

11-تور أندريه ، التصوف الإسلامي ، ترجمة : عدنان عباس علي ، منشورات دار الجمل ، 2003 ، ص 57 .

12-علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق الألماني بين التميّز والتحيّز ، دار بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان، 2018 ، ص 177 .

13-خالد محمد عبده ، المستشرقون والتصوف الإسلامي ، المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، القاهرة، 2016 ، ص 53 .

14-علي بن إبراهيم النملة ، الاستشراق الألماني بين التمّيز والتحيّز، ص 179.

15-زهير يوسف عليوي الحيدري، ص 57 .

16-المرجع نفسه، ص 57 .

18-علي بن إبراهيم النملة، ص 180.

20-خالد محمد عبده، المستشرقون والتّصوف الإسلاميّ، ص 69 .

21-المرجع نفسه، ص 93 .

22- آنا ماري شميل، نموذج مشرق للاستشراق ،ترجمة ثابت عيد ،تقديم محمد عمارة ،دار الرشاد القاهرة، طبعة اولى،1998، ص 45.

23-أنّا ماري شميل، الأبعاد الصّوفية في الاسلام، ص 297.

24-نفسه، ص 300.

25-نفسه، ص 305.

26-نفسه، ص 309.

27-نفسه، ص 310.

28-أنا ماري شميل، الأبعاد الصوفيّة في الاسلام، ص 348.

29-المرجع نفسه، ص 363، 364.

المقالات:

17-ينظر، ميشال جحا، الاستشراق الألماني في القرن العشرين ، مجلة الاجتهاد، العدد 51 ، 2001 ، ص 207، 276 .

19-جامد ناصر الظالمي، المستشرقة الألمانية أنّا ماري شميل وكتابها" وأن محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، مجلة دراسات استشراقية، العدد 05، نوفمبر 2015، ص2 .